العبادة لا يمكن أن تؤدى إلا بمشقة، هذا شيءٌ آخر، هذا من الله وليس بإرادتك. أما أن يكون أمامك طريقان: سهل وصعب، فتذهب إلى الصعب، فهذا ليس من شريعة الله، يقول العامة أول ما ظهرت السيارات: إن الحج على الإبل أجره كامل، وعلى السيارات نصف الأجر، وعلى الطيارات ربع الأجر! ويمكن يجيء شيء أسهل من الطيارات يكون على الثمن؟! هذا غير صحيح، بل نقول: إن هذا من نعمة الله على العبد. صحيح أن الرسول ﷺ نهى عن كثرة الإرفاه، يعني: لا ينبغي للإنسان أن ينغمس في الترفّه حتى ينسى الخشونة، فكان ينهى عن كثرة الإرفاه، ويأمر بالاحتفاء أحياناً[1] وليس دائماً. يعني: ينبغي لنا أحياناً أن نمشي حفاة، حتى لو أن الناس شهروا بنا وانتقدوا هذا الشيء.

فنحن ما دام الله أنعم علينا، فإنه ينبغي لنا أن نسلك بأنفسنا التيسير. فإذا كان لا بد من العسر في أداء العبادة، فإن الأجر على حسبه. لو ذهبت مثلاً إلى صلاة الجماعة في ليلةٍ باردة، وصار عليك مشقة، نقول: لا بأس بهذا، هذا لك فيه أجر، ومن الرباط الذي يرفع الله به الدرجات، ويمحو به الخطايا.

إسباغ الوضوء على المكاره. وما حصل لك من المشقة، فلك فيه أجر، ولو دار الأمر بين أن تسخن الماء، وأن تتوضأ به بارداً، فالتسخين أوْلى. ولهذا قال الفقهاء رحمهم الله: يكره أن يتوضأ الإنسان بما اشتدّ حرّه أو برده، وعلّلوا ذلك بأنه يمنع كمال الطهارة.

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الترجل (٤١٦٠).

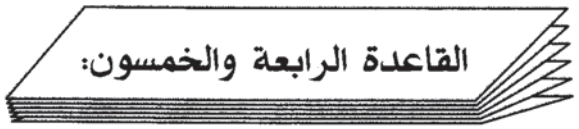

كثيراً ما ينفي الله الشيء لانتفاء فائدته وثمرته المقصودة منه، وإن كانت صورته موجودة.

وذلك أن الله خلق الإنسان وركَّب فيه القوى من السمع، والبصر، والفؤاد، وغيرها؛ ليعرف ربّه، ويقوم بحقّه، فهذا المقصود منها. وبوجود ما خُلقت له تكمل ويكمل صاحبها، وبفقد ذلك يكون وجودها أضر على الإنسان من فقدها، فإنها حجة الله على عباده، ونعمته التي توجَد بها مصالح الدين والدنيا، فإما أن تكون نعمة تامة إذا اقترن بها مقصودها، أو تكون محنة وحجة على صاحبها إذا استعملها في غير ما خُلقت له؛ ولهذا كثيراً ما ينفي الله تعالى هذه الأمور الثلاثة من أصناف الكفار والمنافقين؛ كقوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣]، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، فأخبر أن صورها موجودة؛ ولكن فوائدها مفقودة، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠]، والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ

سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠ ـ ١٥١]، **فأثبت لهم الكفر من كل وجه، فلم يكن دعواهم الإيمان ببعض من يقولون: آمنا به من الكتب والرسل بموجب لهم الدخول بالإيمان؛ لأن إيمانهم بهم مفقودة فائدته حيث كذّبوهم في رسالة محمد ﷺ وغيره من الرسل الذين لم يؤمنوا بهم، وحيث إنهم أنكروا من براهين الإيمان ما هو أعظم من الطريق الذي أثبتوا به رسالة من ادّعوا الإيمان به؛ وكذلك قوله تعالى:** ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]، **لمّا كان الإيمان النافع هو الذي يتفق عليه القلب واللسان، وهو المثمر لكل خير، وكان المنافقون يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم؛ نفى عنهم الإيمان لانتفاء فائدته وثمرته، ويشبه هذا ترتيب الباري كثيراً من الواجبات والفروض على الإيمان؛ كقوله:** ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢]، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، **وقال تعالى:** ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ **إلى قوله:** ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: ٤١]، **وقوله:** ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤]؛ **وذلك أن الإيمان الواجب يقتضي أداء الفرائض والواجبات، ويقتضي اجتناب المحرّمات، فما لم يحصل ذلك فهو إلى الآن لم يتم ولم يتحقق، فإذا وجدت هذه الأمور تحقق؛ ولهذا قال:** ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾.

وكذلك لما كان العلم الشرعي يقتضي العمل به، والانقياد

لكتب الله ورسله؛ قال تعالى عن أهل الكتاب المنحرفين: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١]. **ونظير ذلك قول موسى عليه السلام، لما قال له بنو إسرائيل: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا۟ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾** [البقرة: ٦٧]؛ **فكما أن فَقْد العلم جهل، ففَقْد العمل به جهلٌ قبيح.**

التعليق

خلاصة هذه القاعدة: أن الله تعالى قد ينفي الشيء لانتفاء ثمرته وفائدته، وهذا واقع في الكتاب والسنّة؛ قال الله تعالى: **﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾** [الأنفال: ٢١]، وقال الله تعالى في آيات كثيرة: **﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾**، **﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾**، **﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾** وغير ذلك، وهم عندهم علم، وعندهم عقل، ولكن لما لم ينتفعوا به؛ صار وجوده كعدمه. وقال النبيّ ﷺ: **«لا صلاة بحضرة طعام»**[1]، مع أن الصلاة توجد، ولو بحضرة الطعام؛ لكنه نفاها لانتفاء فائدتها وثمرتها؛ لأن من يدافع الأخبثين أو يحضره طعام يشتاق إليه، فإنه سوف يصلي وقلبه معلّق بهذا الشيء، منشغل بمدافعته، وتكون صلاته كأنها لا صلاة، إذاً من هذه القاعدة نأخذ مضمونها: إن الشيء قد يُنفى لانتفاء حقيقته، وهذا هو الأصل، وقد يُنفى لانتفاء ثمرته وفائدته، وهذا كثير وإن كان خلاف الأصل، لكن ما لا ينتفع به فوجوده كالعدم، بل إن

(١) أخرجه مسلم في كتاب المساجد، باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام (٥٦٠).

وجوده أضرّ، فإن من لا يسمع إطلاقاً، خيرٌ ممن يسمع ولا ينتفع، بلا شك.

فإذا قال لك قائل: كيف يقول الله لهؤلاء الأذكياء ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، وما أشبه ذلك؟

نقول: لأنهم لم ينتفعوا بهذا العقل، فصار موجوداً كأنه معدوم.

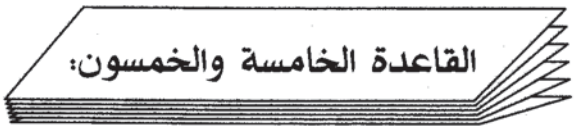

يُكتب للعبد عمله الذي باشره، ويُكمل له ما شرع فيه وعجز عن تكميله، ويُكتب له ما نشأ عن عمله.

التعليق

ثلاثة أمور:

الأول: يُكتب للعبد عمله الذي باشره، وهذا واضح: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

والثاني: يكمل له ما شرع فيه ولم يكمله: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

والثالث: يُكتب له ما نشأ عن عمله: «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلّا من ثلاث: صدقةٍ جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»(١).

ويكتب له ما تركه لعذرٍ وكان يعمله، وهو الموضع الرابع، مثل إذا مرض العبد أو سافر كُتب له مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد الوفاة (١٦٣١).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب يكتب للمسافر مثل ما كان يعمل في الإقامة (٢٩٩٦).

فهذه أربعة أمور كلها تُكتب للإنسان. أما مجرد النية، فإنها تُكتب للإنسان إذا تمنى العمل الصالح ولم يقدر عليه، يُكتب له أجر النية.

ومن ذلك ما أخبر به النبيّ عليه الصلاة والسلام، حين قسم الناس إلى أقسام؛ منهم: من آتاه الله مالاً، فينفقه في طاعة الله، فقال الآخر الذي لم يؤت المال: لو أن لي مِثْلَ ما لفلان لعملت فيه مِثْلَ ما عمل فلان. قال النبيّ عليه الصلاة والسلام: «**فهو بنيته، فهما بالأجر سواء**»[(١)]، سواءٌ بالنية لا بالعمل؛ لأنه لم يعمل، وليس من عادته أن يعمله، فلو كان من عادته أن يعمله لكتب له ما تركه منه لعذر.

فإن قلت: أليس قد قال النبيّ ﷺ: «**إن في المدينة لأقواماً، ما سرتم مسيراً أو قطعتم وادياً إلا هم معكم**»[(٢)]؟ قالوا: يا رسول الله، وهم في المدينة؟! قال: «**وهم في المدينة، حبسهم العذر**». فهذا يقتضي أنهم يشاركون في أجر العمل، أو ظاهره أنهم مشاركون في أجر العمل.

فالجواب: أن يحمل هذا على مَنْ كان مِن عادتهم الخروج في سبيل الله، ولكن حبسهم العذر؛ فهؤلاء يؤتون أجرهم كاملاً، أو يقال: «ما سرتم مسيراً، ولا قطعتم وادياً إلا وهم معكم»، يعني: بنيّتهم، فيكون لهم أجر النية، لا أجر العمل؛ فصارت الأقسام خمسة:

١ ـ من عمل عملاً كُتب له أجر.

٢ ـ ومن شرع فيه ولم يكمله كُتب له أجر.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب النية (٤٢٢٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد، باب من حبسه العذر عن الغزو (٢٦٨٤).

٣ ـ وما نشأ من عمله، وإن لم يكن على باله حين الفعل؛ كُتب له أجر.

٤ ـ وما كان يفعله وتركه لعذر، يكتب له أجر.

٥ ـ وما تمناه ولم يقدر عليه كتب له به أجر، ولكن أجر النية فقط لا أجر العمل.

والدليل على أنه أجر النية فقط، أن الفقراء لما جاؤوا للنبي ﷺ يشكون، قالوا: يا رسول الله، سبق أهل الدثور بالأُجور[١] والدرجات العلى، ثم ذكروا أنهم يصلّون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق؛ فأخبرهم أن يسبِّحوا ويحمدوا ويكبِّروا ثلاثاً وثلاثين، دُبُر كل صلاة، وأنهم بذلك يدركون مَن سبقهم؛ فلما سمع الأغنياء بذلك عملوا مثله، فجاء الفقراء فقالوا: يا رسول الله، سمع إخواننا الأغنياء بما صنعنا، وعملوا مثله؛ فقال لهم: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٥٤]، ولم يقل لهم: لكم أجرهم بنيّتكم، فهذا دليل على ما ذكرناه؛ لأن من تمنى العمل، وليس من عادته فعله، ولا يستطيع فعله، فإنه يكتب له أجره بالنيّة.

أما حديث: «**ما رأيت من ناقصات عقل ودين**»[٢]، فيدلّ على نقص دينها، ولكنه نقص لا تُلام عليه، ويكفيها أجر الامتثال؛

---

(١) أخرج البخاري في كتاب الصلاة، باب الذكر بعد الصلاة (٨٠٧)؛ ومسلم في كتاب المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة (٥٩٥).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم (٢٩٨)؛ ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات (٧٩).

كالإنسان الذي ليس عنده مال، فإنه ينقص دينه لعدم الزكاة، ولا يحصل له الأجر لعدم وجود السبب.

فإن قيل: هي كانت تفعل الصلاة والعبادات؟

فالجواب: نعم، لكن لما وجد المانع، طغى على السبب، فزال أثره بالكلية؛ فليس لها أجر النية ولا العمل، ما لها إلا أجر الامتثال بترك الصلاة. والفرق بينها وبين المريض الذي كان من عادته العمل، أن هذه ـ والله أعلم ـ لما منعها الشرع ونهاها عن ذلك، صارت ليست محلاً للعمل الصالح؛ كالصوم يوم العيد، فلو صامه الإنسان لا يؤجر عليه، ولو تمنى أن يصومه لا يؤجر عليه، ولو نوى أنه يصومه ـ لولا المانع ـ لا يؤجر عليه، هذا هو الفرق.

❑ ❑ ❑

فهذه الأمور الثلاثة وردت في القرآن:

أما الأعمال التي باشرها العبد، فأكثر من أن تُحصى النصوص الدالّة عليها؛ كقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥]، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ [يونس: ٤١]، **ونحو ذلك.**

وأما الأعمال التي شرع العبد فيها ولمّا يكملها، فقد دلَّ عليها قوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠]، **فهذا خرج للهجرة وأدركه الأجل قبل تكميل عمله، فأخبر تعالى أنه وقع أجره على الله؛ فكل من شرع في عمل من أعمال الخير ثم عجز عن إتمامه بموت، أو عجز بدني، أو عجز مالي، أو مانع داخلي أو خارجي، وكان من نيته لولا المانع**

لأتمَّه فقد وقع أجره على الله، فإنما الأعمال بالنيات، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، **فكل من اجتهد في الخير هداه الله الطريق الموصلة إليه؛ سواء أكمل ذلك العمل أو حصل له عائق عنه.**

وأما آثار أعمال العبد، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟﴾ **أي: باشروا عمله** ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ [يٰس: ١٢]، **التي ترتبت على أعمالهم من خير وشرّ...**

التعليق

ويدل على هذا قوله ﷺ: «**من سنّ في الإسلام سنةً حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها، ومن سنّ في الإسلام سنةً سيئةً كان له وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة**»[1]، فالإنسان يُكتب له آثار عمله، حتى وإن لم يقصدها؛ زرع رجلٌ زرعاً، أو غرس غرساً، فانتفع به من لم يخطر بباله أن ينتفع به فإنه يؤجر على ذلك، وإن كان لم يكن بباله حين غرس الغرس أو زرع الزرع، لكن لأنه نشأ عن عمله.

❑ ❑ ❑

... وقال في المجاهدين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة (١٠١٧).

﴿يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠]، فكل هذه الأمور من آثار عملهم. ثم ذكر أعمالهم التي باشروها، بقوله: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً﴾ إلى آخر الآية [التوبة: ١٢١].

والأعمال التي هي من آثار عمله نوعان:

أحدهما: أن تقع بغير قصد من الإنسان؛ كأن يعمل أعمالاً صالحة خيرية، فيقتدي به غيره في هذا الخير، فإن ذلك من آثار عمله، وكمن يتزوج بغير نية حصول الأولاد الصالحين، فيعطيه الله أولاداً صالحين، فإنه ينتفع بهم وبدعائهم.

والثاني ـ وهو أشرف النوعين ـ: أن يقع ذلك بقصده، كمن علَّم علماً نافعاً؛ فنفس تعليمه ومباشرته له من أجلِّ الأعمال، ثم ما حصل من العلم والخير المترتّب على ذلك فإنه من آثار عمله، وكمن يفعل الخير ليقتدي به الناس، أو يتزوج لأجل حصول الذرية الصالحين، فيحصل مراده، فإن هذا من آثار عمله. وكذلك من يزرع زرعاً، أو يغرس غرساً، أو يباشر صناعة مما ينتفع بها الناس في أمور دينهم ودنياهم، وقد قصد بذلك حصول النفع، فما ترتب من نفع ديني أو دنيوي على هذا العمل، فإنه من آثار عمله، وإن كان يأخذ على عمله الأخير أجراً وعوضاً؛ فإن الله يُدخل بالسهم الواحد الجنة ثلاثة: صانعه، ورامیه، والمُمِدّ له.

القاعدة السادسة والخمسون:

يرشد القرآن المسلمين إلى قيام جميع مصالحهم، وأنه إذا لم يمكن حصولها من الجميع فليشتغل بكل مصلحة من مصالحهم من يقوم بها، ويوفر وقته عليها؛ لتقوم مصالحهم، وتكون وجهتهم جميعاً واحدة.

وهذه من القواعد الجليلة، ومن السياسة الشرعية، فإن كثيراً من المصالح العامة الكلية لا يمكن اشتغال الناس كلهم بها، ولا يمكن تفويتها؛ فالطريق إلى حصولها: ما أرشد الله عباده إليه، قال تعالى في الجهاد ـ الذي هو من أعظم مصالح الدين ـ والعلم: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢]، فأمر أن يقوم بالجهاد طائفة كافية، وبالعلم طائفة أخرى، وأن القائمة بالجهاد تستدرك ما فاتها من العلم إذا رجعت؛ وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة: ٢]، وقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨] إلى غير ذلك من الآيات الدالّات على هذ الأصل الجليل، والقاعدة النافعة، وبقيام كل طائفة منهم بمصلحة من المصالح تقوم المصالح كلها؛ لأن كل فرد مأمور أن يراعي المصالح الكلية، ويكون سائراً في جميع أعماله إليها، فلو وفّق المسلمون

لسلوك هذا الطريق لاستقامت أحوالهم، وصَلُحت أمورهم، وانجابت عنهم شرور كثيرة، فالله المستعان.

التعليق

وهكذا الأمة الواحدة كل طائفة منها تقوم بمصلحة؛ لأن قيام الجميع بوظيفةٍ ومصلحة واحدة متعذّر؛ إذ لو فرضنا أن الناس اتّجهوا جميعاً لمصلحةٍ واحدة معينة، لتعطلت المصالح الأخرى. وتركهم للمصالح كلية، أيضاً فساد. ولذلك نقول: يعتبر المؤمنون ـ وإن كانوا أفراداً متعددين ـ كأنهم جسد واحد؛ فالرِّجل للمشي، واليد للبطش. لو أن أحداً قال: سأجعل اليدين للمشي، والرِّجلين للبطش والأكل والشرب! طبعاً لا يمكن، كذلك الأصابع، كل أصبع له وظيفة خاصة يقوم بها، لا يمكن أن تجتمع الأصابع كلها على وظيفةٍ واحدة، ولا يمكن أن تتخلى عن الوظائف، هكذا هو الجسد الإسلامي وهكذا يجب أن يكون المسلمون، كل واحد يسعى في مصلحةٍ معينة تليق به؛ فمثلاً: الرجل ضعيف الجسم، قوي الفهم والذاكرة والحفظ، يكون طلب العلم له أفضل، والرجل القوي الجسم، لكنه بطيء الفهم والحفظ، تكرَّر عليه المسألة أربعين مرة ما يحفظها إلا في خمسين مرة، إلا أنه شجاع مقدام متمرس في الجهاد، فهذا أفضل له الجهاد في سبيل الله. والرجل الآخر عنده حنكة في الصناعة، أو في الطب، أو في الزراعة؛ نقول له: اتّجه لهذا، حتى تقوم الأُمّة الإسلامية بمقوماتها، فكلٌّ يقوم بما يدرك ويتقن ويختص به. هذا الذي ذكره الشيخ ـ رحمه الله ـ صحيح وقاعدة نافعة، وقد ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ من القرآن أدلة، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ

يحتمل أن يكون مستحيلاً شرعاً، أو مستحيلاً قدراً وكوناً، وأقلّ الأمرين أنه مستحيل شرعاً؛ لا يمكن أن يذهبوا جميعاً للجهاد، بل بعضهم يبقى للعلم، وبعضهم يذهب للجهاد، ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ وزّع الجهاد؛ فلا نقول: تخرج القبيلة الفلانية للجهاد، وبقية القبائل يبقون؛ بل نقول: من كل قبيلة، وفرقةٌ، منهم طائفة؛ نأخذ من بني تميم، من قريش، من كذا، من كذا، طائفة؛ ليبقى طائفة يتفقهون في الدين. وإذا تفقهوا في الدين، وحفظوا دين الله، جاءت الفرقة المجاهدة، فينذرون: ﴿وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]. وعلى هذا، فالواو في قوله: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا﴾ في الدين، تعود على القاعدين. والله عز وجل قد جعل الجهاد في سبيل الله عديلاً للضرب في الأرض للتجارة، فقال: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠]، إلى آخره.

كذلك أيضاً الآية الثانية التي ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ، قال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، فقال: ﴿مِنكُمْ﴾ لا كلكم، وإن كان بعض العلماء يقولون: ﴿مِّنَ﴾ بيانية، أي: ولتكونوا على هذا الوصف؛ أمة تدعو إلى الخير، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر. لكن المعنى الأول هو الذي عليه معظم الناس، وهو أنه يجب أن تكون الأُمّة الإسلامية أُمة متفرغة لهذا الشيء؛ يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر. ومن المعلوم أن الدعوة إلى الخير لا بد أن يسبقها علم، وإلا كانت ضرراً؛ إذ إن الإنسان إذا دعا بدون علم، صار ضرره أكثر من نفعه غالباً. لا بدّ من العلم حتى يكون الإنسان داعياً إلى الله على بصيرة.

القاعدة السابعة والخمسون:

في كيفية الاستدلال بخلق السموات والأرض وما فيها على التوحيد والمطالب العالية.

قد دعا الله عباده إلى التفكّر في هذه المخلوقات في آيات كثيرة، وأثنى على المتفكرين فيها، وأخبر أن فيها آيات وعبراً؛ فينبغي لنا أن نسلك الطريق المنتج للمطلوب بأيسر ما يكون، وأوضح ما يكون، وحاصل ذلك على وجه الإجمال أننا إذا تفكرنا في هذا الكون العظيم عرفنا أنه لم يوجد بغير موجد، ولا أوجد نفسه، هذا أمرٌ بديهي؛ فتيقنّا أن الذي أوجده الأول الذي ليس قبله شيء، كامل القدرة، عظيم السلطان، واسع العلم، وأن إيجاد الآدميين في النشأة الثانية للجزاء أسهل من هذا بكثير: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وعرفنا بذلك أنه الحيّ القيوم،...

التعليق

كيف عرفنا أنه الحيّ القيُّوم؟ لأنه لولا حياته لم نوجد. والقيُّوم على وزن الفيعول، وهو من صِيَغ المبالغة، وهو القائم بنفسه، القائم على غيره. ووجه ذلك: أن السمٰوات والأرض دائماً تحتاج إلى من يقوم عليها، ولازم هذه الحاجة أن يكون الله تعالى قيُّوماً عليها دائماً ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

❑ ❑ ❑

... وإذا نظرنا ما فيها من الإحكام، والإتقان، والحسن، والإبداع، عرفنا بذلك كمال حكمة الله، وحسن خلقه، وسعة علمه. وإذا رأينا ما فيها من المنافع والمصالح الضرورية والكمالية، التي لا تُعدّ ولا تُحصى؛ عرفنا بذلك أن الله واسع الرحمة، عظيم الفضل، والبرّ، والإحسان، والجود، والامتنان. وإذا رأينا ما فيها من التخصيصات، فإن ذلك دالّ على إرادة الله، ونفوذ مشيئته، ونعرف من ذلك كله أن مَنْ هذه أوصافه، وهذا شأنه، هو الذي لا يستحق العبادة إلا هو، وأنه المحبوب المحمود، ذو الجلال والإكرام، والأوصاف العظام، الذي لا تنبغي الرغبة والرهبة إلا إليه، ولا يُصرف خالص الدعاء إلا له؛ لا لغيره من المخلوقات المربوبات المفتقرات إلى الله في جميع شؤونها. ثم إذا نظرنا إليها من جهة أنها كلها خُلقت لمصالحنا، وأنها مسخرة لنا، وأن عناصرها، وموادها، وأرواحها، قد مكَّن الله الآدمي من استخراج أصناف المنافع منها؛ عرفنا أن هذه الاختراعات الجديدة في الأوقات الأخيرة من جملة المنافع التي خلقها الله لبني آدم فيها، فسلكنا بذلك كل طريق نقدر عليه في استخراج ما يُصلح أحوالنا منها بحسب القدرة، ولم نخلد إلى الكسل والبطالة، أو نضيف علم هذه الأمور واستخراجها إلى علوم باطلة بحجّة أن الكفار سبقوا إليها وفاقوا فيها، فإنها كلها ـ كما نبَّه الله عليه ـ داخلة في تسخير الله الكون لنا، وأنه يعلِّم الإنسان ما لم يعلم.

التعليق

أما دلالة هذه المخلوقات على التوحيد، فمن جهتين:

الأولى: أن هذه الأشياء كلها لا تتم إلا بازدواج شيئين، قال الله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]، وأن افتقار كل واحدة من هذه المخلوقات إلى شيء آخر لتقوم العناصر دليل على وحدانية من جعل هذه الأشياء مفتقر بعضها إلى بعض.

الثانية: أن هذه المخلوقات نظامها واحد، لا تضطرب ولا تتناقض، ولو كان لها خالقان، لكان هذا يخلق، أو يتصرف بمخلوقاته بشيء يضاد تصرف الآخر، وإذا نظرنا إلى انتظام الكون علمنا أن مدبره وخالقه واحد، وهو الله سبحانه وتعالى.

ثم إن المؤلف استطرد في هذه القاعدة إلى أنه يجب علينا أن لا نخلد إلى الكسل والخمول، وعدم التأمل، وعدم استخراج منافع الأرض التي قال الله تعالى فيها: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥]. ولكن، مع الأسف، إن المسلمين أخلدوا إلى الكسل، وناموا، وأضاعوا أوقاتهم في حرب بعضهم بعضاً، وقتال بعضهم بعضاً، حتى سبقتهم الأُمم الكافرة، مع أنها تعمل هذا الشيء للدنيا فقط! ولو وُفِّق المسلمون للعمل بهذه الأشياء؛ لكانوا يعملونها للدنيا والآخرة، فهذه القاعدة مهمة عظيمة، وهي النظر في هذه المخلوقات العظيمة؛ من حيث الدلالة على خالقها، ووحدانيته، وما تتضمنه من أنواع صفاته؛ كالرحمة، والعلم، والحكمة، والقدرة وما إلى ذلك. والثاني: من جهة أنه ينبغي لنا أن نستعمل عقولنا وأفكارنا في استخراج منافعنا من هذه المخلوقات.

القاعدة الثامنة والخمسون:

إذا أراد الله إظهار شرف أنبيائه وأصفيائه بالصفات الكاملة أراهم نقصها في غيرهم من المستعدين للكمال.

وذلك في أمور كثيرة وردت في القرآن، منها: لما أراد إظهار شرف آدم على الملائكة بالعلم، وعلّمه أسماء كل شيء. ثم امتحن الملائكة، فعجزوا عن معرفتها؛ فحينئذ نبّأهم آدم عنها فخضعوا لعلمه، وعرفوا فضله وشرفه.

ولما أراد الله تعالى إظهار شرف يوسف في سِعة العلم والتعبير؛ رأى الملك تلك الرؤيا، وعرضها على كل من لديه علم ومعرفة، فعجزوا عن معرفتها. ثم بعد ذلك عبّرها يوسف ذلك التعبير العجيب، الذي ظهر به من فضله وشرفه وتعظيم الخلق له شيء لا يمكن التعبير عنه.

التعليق

رأى الملك سبع بقرات سمان يأكلهن سبعٌ عجاف، وسبع سنبلات خضر وأُخر يابسات، ولم يذكر في السنبلات الأكل؛ لأن السنبل لا يأكل بعضه بعضاً، بخلاف البقر؛ فالذين يعبرون الرؤيا قالوا: لا نعرف، وقالوا: هذه أضغاث أحلام. وأما يوسف عليه السلام، فعبّرها تعبيراً عجيباً، فقال لهم: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ كلها ريف وخصب وزرع كامل، ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا

مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [يوسف: ٤٧]، وإنما أرشدهم إلى إبقائه في سنبله؛ لأن الحَبَّ إذا بقي في سنبله لا يسوس. ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ [يوسف: ٤٨]، يعني: تحفظونه، وتحرزونه، وهذا يدل على أن الشيء عندهم شحيح، يتواصون بحفظه وتحصينه. ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف: ٤٩]؛ فهذه أربعة عشر عاماً. وإنما قال: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾؛ لأنه فهم ذلك من الحصر، سبع، وسبع، والعدد المحصور له منتهى؛ فصار الأمر كما ذكر عليه الصلاة والسلام.

❑ ❑ ❑

ولما عارض فرعون الآيات التي أُرسل بها موسى، وزعم أنه سيأتي بسحر يغلبه، فجمع كل سحَّار عليم من جميع أنحاء المملكة، واجتمع الناس في يوم عيدهم، وألقى السَّحرة عصيَّهم وحبالهم، في ذلك المجمع العظيم، وأظهروا للناس من عجائب السِّحر فـ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]؛ فحينئذ ألقى موسى عصاه، فإذا هي تلقف وتبتلع بمرأى الناس جميع حبالهم وعصيهم، فظهرت هذه الآية الكبرى، وصار أهل الصنعة أول من خضع لها ظاهراً وباطناً.

ولما نكص أهل الأرض عن نصرة النبيّ ﷺ، وتمالأ عليه جميع أعدائه، ومكروا مكرتهم الكبرى للإيقاع به؛ نصره الله ذلك النصر العجيب، فإن نصر المنفرد الذي أحاط به عدوُّه الشديدُ حَرَدُه، القوي مكره، الذي جمع كل كيده ليوقع به أشد الأخذات، وأعظم

النكايات، وتخلصه وانفراج الأمر له من أعظم أنواع النصر؛ كما ذكر الله هذه الحال التي عاتب بها أهل الأرض، فقال: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ الآية [التوبة: ٤٠]. وقريب من هذا نصره إياه يوم حُنين؛ حيث أعجبت الناس كثرتهم، فلم تُغنِ عنهم شيئاً، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، ثم ولَّوا مدبرين، وثبت ﷺ؛ فأنزل الله عليه سكينته ونصره في هذه الحالة الحرجة، فكان لهذا النصر من الموقع الكبير ما لا يعبَّر عنه.

وكذلك ما ذكره الله من الشدائد التي جرت على أنبيائه وأصفيائه، وأنه إذا اشتدّ البأس، وكاد أن يستولي على النفوس اليأس؛ أنزل الله فرجه ونصره ليصير لذلك موقع في القلوب، وليعرف العباد ألطاف علّام الغيوب.

ويقارب هذا المعنى: إنزاله الغيث على العباد، بعد أن كانوا من قبل أن ينزل عليه من قبله مبلسين؛ فيحصل من آثار رحمة الله، والاستبشار بفضله ما يملأ القلوب حمداً وشكراً وثناءً على الباري تعالى.

وكذلك يذكّرهم نعمه بلفت أنظارهم إلى تأمل ضدّها؛ كقوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ [الأنعام: ٤٦]، ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ﴾ الآيات [القصص: ٧١]. وتَلْمَح على هذا المعنى قصة يعقوب وبنيه حين اشتدّت بهم الأزمة، ودخلوا على يوسف وقالوا:

قد ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ الآية [يوسف: ٨٨]. ثم بعد قليل قال: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩]، في تلك النعمة الواسعة، والعيش الرغيد، والعزّ المتين، والجاه العريض؛ فتبارك من لا يدرك العباد مِن ألطافه ودقيق برّه أقل القليل.

ويناسب هذا من ألطاف الباري: أن الله يُذكِّر عباده في أثناء المصائب ما يقابلها من النِّعم لئلا تسترسل النفوس للجزع، فإنها إذا قابلت بين المصائب والنعم خفَّت عليها المصائب، وهان عليها حملها؛ كما ذكَّر الله المؤمنين حين أُصيبوا بأُحد ما أصابوا من المشركين ببدر، فقال: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ [آل عمران: ١٦٥]. وأدخل هذه الآية في أثناء قصة أُحد ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، ويبشر عبده بالمخرج منها حين تباشره المصائب؛ ليكون هذا الرجاء مُخَفِّفاً لما نزل من البلاء، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥]. وكذلك رؤيا يوسف إذا ذكرها يعقوب رجا الفرج، وهبَّ على قلبه نسيم الرجاء؛ ولهذا قال: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَايْئَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧]. وكذلك قوله تعالى لأُمّ موسى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

وأعظم من ذلك كله أنَّ وَعْدَ الله لرسله بالنصر، وتمام الأمر؛ هوَّن عليهم المشقات، وسهَّل عليهم الكريهات، فتلقّوها بقلوب مطمئنة، وصدور منشرحة، وألطاف الباري فوق ما يخطر بالبال، أو يدور في الخيال.

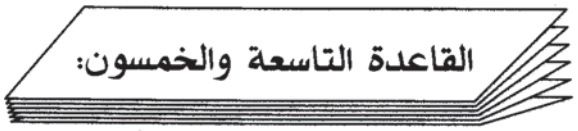

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]

ما أعظم هذه القاعدة والأصل العظيم الذي نصّ الله عليه نصاً صريحاً، وعمّم ذلك ولم يقيِّده بحالة من الأحوال؛ فكل حال هي أقوم في العقائد، والأخلاق، والأعمال، والسياسات الكبار، والصغار، والصناعات والأعمال الدينية والدنيوية، فإن القرآن يهدي إليها، ويرشد إليها، ويأمر بها، ويحثّ عليها. ومعنى: «أقوم»، أي: أكمل، وأصلح، وأعظم قياماً وصلاحاً.

فأما العقائد: فإن عقائد القرآن هي العقائد النافعة التي فيها صلاح القلوب وغذاؤها وكمالها؛ فإنها تملأ القلوب محبة لله، وتعظيماً له، وألوهية وإنابة. وهذا المعنى هو الذي أوجد الله الخلق لأجله.

وأما أخلاقه التي يدعوا إليها: فإنه يدعوا إلى التحلِّي بكل خلق جميل؛ من الصبر، والحلم، والعفو، وحُسن الخلق، والأدب وجميع مكارم الأخلاق، ويحث عليها بكل طريق، ويرشد إليها بكل وسيلة.

وأما الأعمال الدينية التي يهدي إليها: فهي أحسن الأعمال التي فيها القيام بحقوق الله، وحقوق العباد على أكمل الحالات، وأجلّها، وأسهلها، وأوصلها إلى المقاصد.

وأما السياسات الدينية والدنيوية: فهو يرشد إلى سلوك الطرق

النافعة في تحصيل المصالح الكلية، وفي دفع المفاسد، ويأمر بالتشاور على ما لم تتضح مصلحته، والعمل بما تقتضيه المصلحة في كل وقت بما يناسب ذلك الوقت والحال، حتى في سياسة العبد مع أولاده، وأهله، وخادمه، وأصحابه، ومعامليه؛ فلا يمكن أنه وُجد ويُوجد حالة يتفق العقلاء أنها أقوم من غيرها وأصلح إلا والقرآن يرشد إليها نصاً، أو ظاهراً، أو دخولاً تحت قاعدة من قواعده الكلية، وتفصيل هذه القاعدة لا يمكن استيفاؤه.

وبالجملة، فالتفاصيل الواردة في القرآن وفي السنّة من الأوامر النواهي والإخبارات كلها تفصيل لهذا الأصل المحيط، وبهذا وغيره يتبين لك أنه لا يمكن أن يرد علم صحيح، أو معنى نافع، أو طريق صلاح ينافي القرآن، والله تعالى وليّ الإحسان.

التعليق

بهذه القاعدة ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾، يتبين لنا أن جميع القوانين المعارضة للقرآن كلها لا خير فيها، وأنه إن قدر فيها خير فما في القرآن خير، وأشدّ، وأثبت، ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا [الفرقان: ٣٣]، ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٦ ـ ٦٨].

والحاصل: أن كل ما كان أقوم في العقائد، والأعمال، والأقوال، والأخلاق، والسياسات، والمعاملات، والمتروكات، والمنهيات؛ فإن القرآن يهدي إليه. ونأخذ من هذا قواعد عظيمة:

منها: إذا تعارضت مصلحتان؛ إحداهما أنفع، أخذنا بالأنفع.

ومنها: إذا تعارضت مفسدتان؛ إحداهما أشدّ، أخذنا بالأخف. وعلى هذا فقِسْ؛ فكلما كان أقوم، كان القرآن يهدي إليه، والعكس بالعكس. فكلما كان أعوج وأردأ، وأسوأ، فإن القرآن لا يهدي إليه؛ بل يهدي إلى ضدِّه وعكسه.

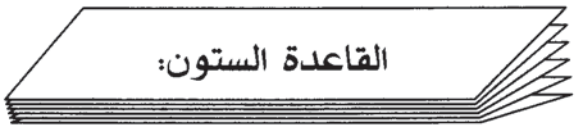

من قواعد التعليم الذي أرشد الله إليه في كتابه: أن القصص المبسوطة يُجملها في كلمات يسيرة ثم يبسطها، والأُمور المهمة يتنقل في تقريرها نفياً وإثباتاً من درجة إلى أعلى أو أنزل منها.

وهذه قاعدة نافعة، فإن هذا الأسلوب العجيب يصير له موقع كبير، وتقرر فيه المطالب المهمة؛ وذلك أنه إذا أُجملت القصة بكلام كالأصل والقاعدة لها، ثم وقع التفصيل بعد ذلك الإجمال، وقع إيضاح وبيان تامّ كامل لا يقع ما يقاربه لو فصِّلت القصة الطويلة من دون تقدم إجمال، وقد وقع هذا النوع في القرآن في مواضع:

منها: في قصة يوسف في قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، ثم قال: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَـٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾ [يوسف: ٧]، ثم ساق القصة بعدها.

وكذلك في قصة أهل الكهف، لما قال: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا ۝٩ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَـٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ [الكهف: ٩ ـ ١٢]، فهذا إجمالها قد حوى مقصودها وزُبدتها، ثم وقع بعده التفصيل بقوله: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الكهف: ١٣] إلى آخر القصة.